

عبد الحميد عليوه
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة باجي مختار - عنابة

مكانة المهارات اللغوية في طرائق
تعليم اللغات

ملخص

الإنصات للغة قبل الحديث بها، مرحلة من المراحل الأساسية في تعليم اللغات و خاصة اللغات الأجنبية، و الكلام بلغة من اللغات هو مرحلة أخرى مهمة و لكنها تالية للأولى، هاتان المهارتان بالإضافة إلى القراءة و الكتابة - تمثلان أهم أهداف تعلم اللغات. و الطرائق الحديثة في أسسها العامة تهدف جميعها إلى تعليم هذه المهارات كلها أو بعضها حسب الأهداف الخاصة المرتبطة بالأهداف و الحاجات.

مما لا شك فيه أن تعليمية اللغات

(La didactique des langues)

كانت منذ بداية النصف الثاني من القرن الماضي، و لا تزال، من العلوم التي حققت نجاحا كبيرا سواء بالمفهوم العام (La didactique) أي تعليمية العلوم، سواء منها التجريبية أو الاجتماعية، أو بالمفهوم الخاص في مجال تعليم اللغة سواء لأبنائها أو لغير أبنائها¹. بالإضافة إلى النجاح الكبير الذي حققته التعليمية وخاصة في مجال تعليم اللغات، فقد كانت عاملا رئيسيا في تطوير النظرة إلى مفاهيم لغوية

Résumé

Ecouter une langue, surtout une langue étrangère, est l'étape indispensable à l'acquisition de cette langue. Parler une langue est aussi le but de tout apprenant, mais bien parler une langue n'est accessible qu'à celui qui a une grande capacité d'écoute. Aussi toutes les nouvelles méthodes ces deux buts ainsi que la lecture et l'écrit

مهمة، كمفهوم التعليم، و الاكتساب اللغوي، و إثراء مفهوم التواصل اللغوي و استغلاله في العمل التربوي، و كذلك تطوير مناهج تعليم اللغات و طرائقها كما سنوضح ذلك. لذلك سوف نتطرق في هذا المقال إلى موضوع المهارات اللغوية لبيان أهميتها و مكانتها في اكتساب اللغة، كما سنوضح كيفية اهتمام الطرائق الحديثة بهذه المهارات لما لها من أثر و قيمة في كل عملية تربوية كما يؤكد ذلك المهتمون بهذا الميدان.

1- المهارات اللغوية:

هي أربع مهارات (الاستماع - الكلام - القراءة - الكتابة)، و لما كان لكل علم أهدافه، فإن هذه المهارات الأربع في تعليم اللغات تمثل الأهداف الأساسية، التي يسعى كل معلم لتحقيقها عند المتعلمين، فتعلم أي لغة من اللغات، سواء كانت اللغة الأم أم لغة أجنبية، إنما هدفه هو أن يكتسب المتعلم القدرة على سماع اللغة و التعرف على إطارها الصوتي الخاص بها، و يهدف كذلك إلى الحديث بها بطريقة سليمة تحقق له القدرة على التعبير عن مقاصده، و التواصل مع الآخرين أبناء تلك اللغة خاصة، و كذلك يسعى إلى أن يكون قادرا على قراءتها و كتابتها.

و بهذه الصورة تصبح هذه المهارات هي مركز البحث و الأهداف الحقيقية العلمية التربوية، فما هي هذه المهارات، و ما أهميتها، و كيف يمكن استغلال ما كتبه الباحثون للاستفادة من هذا كله في تطبيق طريقة التعليم (أيا كانت) لتحقيق أفضل النتائج.

سنركز في هذا المقال على مهارتين أساسيتين هما مهارتي السماع و الكلام، و هما من أهم المهارات التي يلج المتعلم عبرهما ميدان اكتساب أي لغة، و يتوقف على تعليمها بالطريقة الصحيحة، نجاح العملية التعليمية كلها، و الإخفاق فيهما يعرقل العملية التعليمية و يعقدها، بحيث يكون ذلك عائقا كبيرا أمام تعلم اللغة بصورة متكاملة و صحيحة.

1- مهارة السماع:

لا بأس من العودة إلى علمائنا القدماء لنستلهم من أقوالهم معاني ما دونوه في بعض جوانب هذا الموضوع، فابن خلدون مثلاً، يعرف اللغة على أنها "ملكة"، أي قدرة من القدرات "الصناعية" كما يشير إلى أنها تكتسب و لا تورث و لذلك وجب الاهتمام بها و بطر اكتسابها كما يوضح في مقدمته حين يقول: " اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة و ليس ذلك بالنظر إلى المفردات و إنما هو بالنظر إلى التركيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة و مراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع و هذا هو معنى البلاغة"².

إن كتساب اللغة عند ابن خلدون، كما هو واضح من هذا النص هو اكتساب للتركيب الحاملة للمعاني و الدالة على المقاصد، و بعد ذلك هو حسن تطبيق هذا التركيب و تأليفه بالطريقة الفنية التي تجعله مطابقاً للسياق الذي يقال فيه و ملائماً له.

و يقول في موضوع آخر: " السماع أبو الملكات "³ في إشارة منه إلى أن اللغة - و هي الملكة الكبرى - تتكون كذلك من ملكات أخرى، أهمها "السماع".

و لا غرو في ذلك إذا عرفنا أن العرب منذ القديم قد أولوا أهمية بالغة لسماع اللغة في صفاتها، و تذكر كتب التأريخ للغة العربية في غير موضع بأن العرب كانوا يحرصون على أن يتربى أبناؤهم في البوادي و بعيداً عن الحاضرة، ليتعلموا اللغة العربية بطريقة سليمة من طريق سماعها صافية من متكلميها الذين لم يختلطوا بالأعاجم، و لم يصب ألسنتهم اللحن.

أما اليوم، فقد أولى الباحثون اهتماماً كبيراً - خاصة بعدما ازدهرت طرائق تعليم اللغات - بمهارة السماع، و يقصدون به الإنصات المركز الواعي، و هو المهارة الأساسية الأولى التي يجب بذل الجهد في تعليمها لضمان نجاح العملية التعليمية كلها. و قد وضعوا لذلك أهدافاً أساسية، لا بد لكل معلم أن يعرفها و يحسن الوصول ضماناً لنجاحه. و هذه الأهداف هي:⁴

1- نقل المتعلم من المحيط الصوتي القديم إلى المحيط الصوتي الجديد.

تؤكد الدراسات التربوية الحديثة على أن أول صعوبة تواجه متعلمي اللغات - وخاصة الأجنبية منها - تتمثل في كيفية انتقال المتعلم من المحيط الصوتي بلغته الأصلية، الناتج من خصائص هذه اللغة الصوتية سواء كان ذلك في صفات أصواتها أو مخارجها، أو في الطابع الخاص بنبرتها و تنغيمها، فتعلم الإنسان لغته تطبع فكره و إحساسه باللغة أولاً و قبل كل شيء بهذه الطريقة الصوتية التي يستعمل بها هذه اللغة، و هذا أمر نجده في جميع اللغات، فحديثنا نحن باللغة العربية في طابعها الصوتي، يختلف عن الحديث باللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية عندما يتحدث بلغته الأم، لذلك كانت مهمة المعلم الأولى و الأساسية هي مرافقة المتعلم عن طريق تقديم اللغة التي يراد تعليمها في إطارها الصوتي، بحيث يجعله يستمع إلى هذه اللغة بصورة مكثفة عن طريق اختيار نصوص و كلمات أو نشاطات بهذه اللغة قائمة اختيار دقيق يحقق للمتعم حسن الولوج إلى هذه اللغة، ليقوده في الأخير إلى الاستئناس بهذه اللغة و التعود على سماعها و الوعي بأنها تختلف كثيراً أو قليلاً عن لغة الأم في هذا المستوى بالذات.

و تعتبر هذه المرحلة من المراحل المهمة التي يتوقف عليها نجاح المراحل الأخرى.

2- التعرف على الأصوات و التمييز بينها، و في هذه المرحلة لا يطلب من المتعلم معرفة معاني الكلمات لأن الهدف هو التعرف على أصوات اللغة الجديدة خاصة الأصوات المختلفة عن أصوات لغته الأم - في تعليم اللغات الأجنبية - كما تعتبر هذه المرحلة كذلك امتداداً للمرحلة السابقة التي يسعى فيها المتعلم إلى إكمال انغماس المتعلم في محيط اللغة الصوتي حتى يألفه.

3- إدراك المعنى العام للكلام، و يتم ذلك عن طريق تقديم مجموعة من الكلمات أو العبارات البسيطة يستطيع المتعلم نطقها بسهولة، و تحمل معان عامة شائعة يمكن أن يستوعب مضامينها، و يتدرب على تكرارها.

4- إدراك بعض التغيرات في المعنى الناتجة عن تغير في بنية الكلمة (كتغير الصوت، أو إضافة حرف.... الخ)، و ذلك للفت الأنظار انتباه التعلم إلى وظيفة الأصوات، و أثرها في المعنى، و التعرف شيئاً فشيئاً على بنية اللغة.

5- و هي المرحلة الأخيرة من مراحل تعليم السماع, و يتم فيها تقديم بعض الأساليب المستعملة في الحياة اليومية و المتصلة بثقافة اللغة المستعملة في الحياة اليومية و المتصلة بثقافة اللغة المتعلمة, كالسؤال, و للجواب, و الأمر, و الإشارة إلى مدلول, و التحية و الاستجابة لها الخ.

هذه هي مراحل تعليم مهارة السماع كلها, لكن تشير فقط إلى أن هذا التقسيم لهذه المهارة إلى مراحل, إنما هو من أجل التقريب و التوضيح, فالمهارة هي كل هذه المراحل مجتمعة, و التفريق بينها خاضع لحس المعلم و انتباهه, فهو الذي يقدر لخطه الانتقال من مرحلة إلى أخرى حتى يتم التأكد من تمام الأولى, و لا بد أن تعالج كل المراحل في النهاية على أساس متكامل هو تحقيق مهارة السماع. و يمكن للمعلم أن يستعين ببعض القواعد التربوية الخاصة بتعليم هذه المهارة نذكر منها:

أ- توجيه المتعلمين إلى الإنصات للموقف عدة مرات من أجل التعود على محيط اللغة الصوتي الجديد دون التفكير في مكونات الكلام و عناصره.

ب- تشجيعهم على استبعاد لغتهم القومية, ليتم التركيز على اللغة المتعلمة فقط.

ج- التدرج في تقديم الأصوات و المادة الأولى من اللغة من المواقف البسيطة إلى المواقف الأكثر تعقيدا, على أن يوافق هذا التدرج مراحل نمو عملية السماع.

د- حث المتعلمين على الاستماع إلى مجموعة من أحاديث, تم استرجاعها على شرائط مسجلة بأصواتهم, تم الاستماع إليها, و هذا يعطيهم فرصة للمقارنة, و يقدم لهم ما يسمى في علم النفس التربوي بالتغذية الرجعية.

هذا بالنسبة لمهارة السماع, ونشير في الأخير إلى أن هذه المرحلة هي مخصصة لتحضير المتعلم من الناحية الصوتية, و هي عملية مهمة, لأن من يسمع اللغة جيدا يتكلمها كذلك.

2- مهارة الكلام:

ليس هناك داع للتأكيد على أهمية مهارة الكلام, فكل متعلم لأي لغة, يهدف أولاً و قبل كل شيء إلى استعمالها و التحدث بها ليتصل مع الآخرين و يعبر عن أفكاره و مقاصده.

فالكلام -إذن- مهارة إنتاجية, تتطلب من المتعلم القدرة على استعمال أصوات اللغة بصورة صحيحة (و هذا يحقق في مرحلة السماع), و التمكن من الصيغ الصرفية و نظام تركيب الكلمات, و في الأخير القدرة على حسن صياغة اللغة في إطارها الاجتماعي. إن الغرض من الكلام هو نقل المعنى لتحقيق التواصل, و لن يتم ذلك إلا بحذف قواعد اللغة في سياقها الاجتماعي, فلا تواصل بدون معنى, و لا معنى خارج الإطار الاجتماعي⁵.

من هنا تظهر أهمية الكلام في تعلم اللغات, و إذا ما أهملت هذه المهارة أو أشرت لفترة زمنية معينة, كان ذلك عقبة كبيرة في تعليم اللغة كلها, لأن المتعلم - كما ذكرنا - يقبل على تعلم اللغة و هو يهدف أساساً إلى استعمالها شفويًا, و عندما تمر الأيام دون أن يتمكن من ذلك, يحدث له نوع من الإحباط, و ينتابه شعور بأن التحدث بهذه اللغة أمر صعب المنال.

لكل هذا, كان تعليم هذه المهارة, هو سعي إلى تحقيق مجموعة من الأهداف, يمكن حصرها فيما يلي:

أ- أن ينطق المتعلم أصوات اللغة سليمة صحيحة, و أن يؤدي جميع أنواع النبر و التنغيم بطريقة مقبولة.

ب- التعبير عن المعاني باستعمال التراكيب النحوية و الصيغ الصرفية المناسبة.

ج- اكتساب ثروة لفظية موافقة لمستوى نضجه و قدراته.

د- القدرة على استعمال أساليب اللغة المفيدة في التواصل مع الآخرين , في معانيها ووظائفها.

و في ختام الحديث عن مهارتي (السمع و الكلام)، تجدر الإشارة إلى أن هذه المعلومات موجهة للمعلم، و جهلها يضع هذا المعلم حين يواجه المتعلمين في حيرة من أمره، متسائلا من أين يبدأ و ما الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها في كل مرحلة. إن التركيز على هذه المهارات ناتج في الحقيقة من تطور النظرة إلى اللغة و مواضيعها خاصة منذ بداية القرن العشرين، و ظهور النظريات اللغوية الحديثة (النظرية البنوية، و النظرية التوليدية التحويلية). لفقد غيرت أفكار هذه النظريات طبيعة التعامل مع اللغة بما أمرت عليه من حقائق لغوية. و من هذه الحقائق التي أكدت عليها النظرية البنوية نذكر: "6"

- اللغة نظام و بنية
- التأكيد على أن اللغة منطوقة قبل أن تكون مكتوبة
- اللغة مجموعة منظمة من العادات
- تعليم اللغة لذاتها، و ليس ما يدور في فلكها من أفكار فلسفية و جدل في قضاياها النظرية.
- اللغة هي ما يستعملها أصحابها، و ليس ما ينبغي أن يكون.
- اللغات تختلف فيما بينها في جميع المستويات (الصوتية و الصرفية- المعجمية، و التركيبية و الدالية).

لقد مثلت هذه الأفكار بالنسبة لطرائق تعليم اللغات الأرضية النظرية لاستحداث طرائق جديدة، و استلهمت منها مادتها الأساسية في التركيز على تعليم المهارات، أي ما اتصل بالجانب المنطوق من اللغة، و الوجه الإستعمالي لها، و دراسة بنيتها الشكلية... الخ و هذا ما يفرق في الحقيقة بين الطرائق التقليدية، أو ما عرف بطريقة التواعد و الترجمة المعروفة قبل البنوية، و التي أهملت هذه المهارات، و ركزت كما يبدو من اسمها على تعليم قواعد اللغات القديمة و الترجمة منها و إليها، و ذلك تأثرا بالجو الفكري السائد في ذلك الوقت (و هو أمر لا نريد التوسع فيه في هذا المقام) و بين الطرائق الحديثة، و خاصة ما عرف بالطرائق البنوية، كالطريقة السمعية الشفوية البصرية، و الطريقة المباشرة،..... الخ). فقد استفادت هذه الطرائق جميعا من

النظريات اللغوية، و ركزت على استغلال مفاهيمها، فانعكس ذلك كله على مضمون انشغالاتها، فاهتمت بالمهارات اللغوية خاصة مهارة السماع و الكلام: فالطريقة السمعية الشفوية مثلا، كانت و لا تزال تهدف إلى تعليم اللغة كما ينطقها أصحابها بالاعتماد على السماع في أصواتها و نبرها و تنغيمها، و كما هي مستعملة حقيقة، و كذلك بالاعتماد على استغلال تراكيبها و معانيها في سياقاتها الاجتماعية كما هي متداولة عند أبناءها في فترة زمنية محددة.

إضافة إلى هذه الطرائق، فذكر الطريقة التواصلية، التي تهدف إلى تعليم اللغة اعتمادا على وظيفتها الأساسية (التواصل)، و قد استفادت في ذلك من تطور نظرية التواصل اللغوي، و قدمت هذه النظرية على يد مجموعة من العلماء من معلومات هامة حول هذه الوظيفة، وجهت بها أنظار المهتمين بتعليم اللغات و الاستفادة منها.

و في الختام، نقول، إن تعليم اللغات (الأم، أو اللغات الأجنبية) قد عرف تطورا كبيرا منذ منتصف القرن الماضي، و ذلك نتيجة عوامل كثيرة، حضارية و ثقافية، و تجارية و سياسية... الخ

و قد عرفت المجتمعات الأوروبية قيمة اللغات الوطنية في بناء المجتمعات و نشر الثقافات و التعريف بالهوية و التأثير في الآخرين فوفرت للغاتها جميع الوسائل لترقيتها و نشرها، و أولى هذه الوسائل هي البحث في كيفية تعليمها لأبنائها أولا، ثم للآخرين ثانيا فظهرت الطرائق المختلفة، عامة و متخصصة، و تنوعت بحسب الأهداف و حسب الحاجات، و البيئات.

و بهذا كانت اللغة في هذه المجتمعات عاملا أساسيا من عوامل التوحيد بين أفراد الثقافة الواحدة، و ركيزة أساسية في الحفاظ على موروث الأمم و المجتمعات الذي يعتبر هو ضميرها و امتدادها الحضاري. فهلا أولينا في مجتمعاتنا العربية اللغة العربية الاهتمام نفسه، و أوكلنا الأمر إلى ذوي الاختصاص من علماء و أبناء هذه الأمة لوضع الطرائق التعليمية الناجعة، لتحقيق مع حقيقته المجتمعات المتقدمة حتى

لا تملأ علينا الطرائق.إملاء, و لا تصاغ لنا البرامج التعليمية صوغا, لا يخدم مجتمعاتنا. و لا يسعى لترقيتنا و ازدهارنا.

الهوامش:

- 1- انظر : charles bouton-la linguistique appliquée-p.u.f paris-France- 1979.p.5
- 2- مقدمة ابن خلدون - المكتبة العصرية- بيروت- لبنان- ص 554
- 3-المصدر نفسه-ص 560
- 4- انظر : محمود كامل الناقة - تعليم اللغة العربية - جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية- 1985- ص 121
- 5- انظر المرجع نفسه - ص 151
- 6- انظر : ferdinand dessaussure-cours de linguistique générale-payothèque- paris-France-1979